جابر عصفور و أنا (1)

الدكتور جابر عصفور غني عن التعريف على مستوى العالم العربي الذي يعده علما رائدا في العربية والفكر الأدبي المعاصر. وقد عرض كتاب «دليل الناقد الأدبي» الذي أنجزته بالتعاون مع الدكتور سعد البازعي في عام 1995م، ونشر ملاحظاته في مجلة **العربي** (العدد 448، شوال/مارس، 1996، ص: 76-81). وقد امتدح جهدنا وأثنى على «أمانتنا»؛ ونحن نشكر للدكتور صدق شعوره النبيل وتعاطفه مع «الدليل» على ما فيه من عيوب سجل بعضها مشكورا وعف عن أخرى مشكورا أيضا. ولئن كان بعض ما سجله وجيها قيما، فإن أكثره – مع الأسف – لا يتمتع بالقيمة نفسها، ولا يبرره غير سوء الظن. وسأورد أمثلة مختصرة تتعلق بالكتاب عموما ثم أنتهي إلى ما يخصني شخصيا دون الدكتور سعد البازعي، وتبعا لذلك سيتغير ضمير المتكلم.

أولا:

(1) يرى الدكتور جابر عصفور أننا خلطنا الغرر بالعرر، وأهملنا ثلاثة أعلام يقرأ العالم كله كتاباتها. يقول: «ولكنهما يخلطان بين هذه الأعلام الفرنسية المؤثرة وأعلام ليس لها التأثير نفسه مثل تيرنس هوكس وجوناثان كوللر وروبرت شولز، ولا يشيران إلى أسماء أخرى يقرأ العالم كله كتاباتها اليوم ولها تأثيرها اللافت في النقد الأدبي، مثل أسماء بردريار [كذا]، وليوتار، وإيهاب حسن...» (80)

ونقول إن الحقيقة غير ذلك، وإن الدعوى لا مبرر لها سوى احتمال ضعيف، وهو أن جابر عصفور لم يقرأ «دليلنا». فلقد أوردنا هذه الأسماء بالذات وأشرنا إلى الأهمية التي تحتلها في الثقافة الغربية المعاصرة. وتكفي نظرة واحدة إلى الكشاف في نهاية الكتاب لتبين أن بودريار (جان) قد ورد على صفحة 103؛ وأن ليوتار (جان فرانسوا) ورد على صفحة 90، وعلى صفحة 103؛ وأن إيهاب حسن ورد على صفحة 107-108. ويعوزنا التفسير لدعوى عصفور التي تزعم أن «الدليل» خال من هذه الأسماء!

(2) ويقول جابر عصفور: «وبرغم تركيزهما على نظريات التفكيك، وهو تركيز أفادا فيه من جهد كاظم جهاد في الترجمة والتعريف بدريدا، فإن مصطلحات كثيرة ... ظلت غائبة ... ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: النقد التوليدي، النقد الشارح، السرديات، نظرية الفعل الكلامي، إزاحة المركز، الأفق والتوقعات، القارئ المضمن، المروي

عليه، المؤسسة الأدبية، مرحلة المرآة، مركزية الفالوس، مركزية العلة، لذة الكتابة، النصية، التناص، التداولية، الأساطير البيضاء، النقد الثقافي، الخيالي والرمزي، خطابات المابعد...» (80).

ولئن كان مصيبا في أن بعض هذه المفاهيم غير موجودة، فإنه جانب الصواب في أغلبها. فمفاهيم «الأفق والتوقعات، القارئ المضمن، المروي عليه، والأساطير البيضاء» موجودة في تضاعيف «الدليل»، ولا ندري لماذا يزعم عصفور عدم وجودها؟ فلعل اختلاف الترجمة التي يأخذ بها سبب هذه الدعوى. فقد ترجمنا القارئ المضمن بالقارئ المضمر (implied reader)، وترجمنا المروي عليه بالمروي له. أما الأفق والتوقعات فموجودة بالصورة نفسها، وكذلك النصية والنصوصية. ولئن قال إن «الدليل» خال من المابعديات، فإنه أيضا جانب الصواب لأننا أدرجنا مابعد الحداثة ومابعد البنيوية، ومابعد الكولونيالية، ومابعد الماركسية، ومابعد الإستعمارية. كما وردت الميثولوجيات (الأساطير) البيضاء على صفحة 79. ولعل مآخذ عصفور لها أسبابها التي لم ندركها بعد! أما فيما يتعلق بما لم ندرجه، فنقول إن هدف الدليل لم يكن إدراج كل شيء، ولا شك أن جابر عصفور مدعو لسد النقص.

(3) أما مديونيتنا للأستاذ كاظم جهاد، فتقف عند رسمه لمفهوم الاخ(ت)لاف فقط، ونعتقد أنه وفق كثيرا بهذا الرسم الذي يحاول أن يميز هذا المفهوم عن مفهوم الاختلاف العادي. ولم نفد لا من تعريفه بدريدا ولا من ترجماته عنه، وليس هذا تقليلا من جهده وإنما كانت بدائلنا أغنى من جهة، ولعلنا ببدائلنا نحلُّه، من جهة أخرى، من سوء علمنا إن أسأنا. فحين أنجز أحدنا أطروحته للدكتوراة عن جاك دريدا في عام 1985م، لم يكن قد صدر بعد ما نشره كاظم جهاد عام 1988م من ترجمة لبعض مقالات دريدا.

ثانيا:

وقبل مناقشة أهم ما جاء في عرض جابر عصفور فإنني أود أن أحلّ الدكتور سعد البازعي من المسؤولية لأن القضية تخصني دونه. ولئن لم أجد تبريرا لما أوردته في «أولا» ولدعوى خلو «الدليل» من مداخل كثيرة وهي في الحقيقة موجودة، فإنني أيضا لم أستطع فهم أسباب تخمينه «أننا» لم نقرأ الأصول وإنما سمعنا بها فقط ولربما «لأول مرة». ويورد عصفور مثاله مكتفيا به دليلا وإشارة إلى ما عف عن ذكره. فيقول: «وأكتفي هنا بمثال واحد فقط، وهو مصطلح دريدا الذي سبق أن أشرت إليه (الجراماطولوجيا) فالباحثان يترجمانه بكلمة "**النحوية**"، وقوعا في المعنى الذي قد يخطر على الذهن لأول مرة، **حين يسمع المرء عن كتاب عنوانه** *Of Grammatology* ، **فيتوهم توهما ساذجا** أن الكتاب يرتبط بعلم "النحو"، قياسا على الأجرومة أو كلمة "Grammar"، التي تعني النحو **وقواعد اللغة، ولكن ذلك في حالة السماع الذي يقترن بعدم قراءة الأصل، أو القراءة الجادة عنه**. أما إذا اطلع على الكتاب في نصه

الفرنسي الأصلي الذي صدر عام 1967، أو ترجمته الإنجليزية التي صدرتها المترجمة جاياتري سبيفاك (التي أصبحت من أبرز أعلام الخطاب ما بعد الكولونيالية) بدراسة توضيحية مهمة، فإنه يدرك أن عنوان الكتاب لابد أن يقاس على **الكلمة اليونانية** الدالة على "الحرف" أو "النقش"، وإلى فكرة دريدا عن التراتب القمعي القديم الذي جعل **الأولية للصوت المسموع وليس للحرف المكتوب**. والواقع أن "الجراماطولوجيا" **مصطلح صاغه، أو سكه،** جاك دريدا كاسم دال على "علم الحروف أو الكتابة" واشتقه من كلمة **اللوجوس** (Logos) اليونانية الدالة على **"العلم"** وكلمة **الجرام** (Gramme) الدالة على "الحرف"، **مشيرا به إلى علم جديد** يقضي على مركزية العلة، كما يقضي على التعارض الميتافيزيقي بين الكلام والكتابة، والتفضيل الأولي للكلام أو الصوت على الكلمة المكتوبة...» (78-79)اهـ.

وأود أن أناقش ما يقوله عصفور عبارة عبارة، خاصة ما أبرزته بالخط العريض، وأدعو كل من يقرأ هذا التخمين أن يلاحظ التقصي الدقيق الذي يورده عصفور والأصول الأغريقية التي عاد إليها مشكورا.

(1) يدعي جابر عصفور أننا لم نقرأ الكتاب في أي من اللغة الفرنسية أو الإنجليزية، أو حتى أننا لم نقرأ عنه قراءة جادة. لأننا لو أخذنا «أجد» الخيارات لطابقت ترجمتنا ما يذهب إليه جابر عصفور من أن الكتاب له علاقة بالحروف والكتابة، وأن عنوانه بالضرورة مزيج من العلم والحرف.

(2) وبما أننا ترجمناه "النحوية"، فلابد أن الأمر اختلط علينا نتيجة السماع بعنوان الكتاب دون أن نراه. ولهذا فإن ترجمتنا ناجمة عن الاعتماد على السماع فقط أو مع شيء من المصادر الثانوية غير الجادة. ولا أشك أن جابر عصفور أدرج الخيار الأخير لأنه لم يقرأ الكتاب لا باللغة الفرنسية ولا باللغة الإنجليزية، لكنه قرأ عنه. ولو كانت قراءته جادة كالتي ينصحنا بها، لتلافى كثيرا من الأخطاء الفاضحة التي ضمنها تبريراته، والتي لا تليق بمن يعتد في علمه بالأصول والقراءة الجادة. ولعلي أورد فيما يلي ما يبرر أن للرواد كبوات:

(أ) يقول عصفور بيقين قلما يجازف به من هو مثله (أو من قرأ ثاني صفحة من الكتاب بترجمة سبيفاك التي لم يفشل عصفور بالتعريف بها) إن الجراماتولوجيا: «**مصطلح صاغه، أو سكه** جاك دريدا». وهذا القول يجانب الصواب ولا يحتاج تصحيحه إلى أي جهد، بل يكفيه أن يقرأ المرؤ ثاني صفحات الكتاب. فمع أول ورود الكلمة في النص، نجد دريدا نفسه يرفض هذا الشرف الذي يضفيه عليه عصفور، إذ معها يحيل دريدا نفسه إلى الهامش رقم (4)، وهناك نجد دريدا لا يتحدث وحسب عن ورود المصطلح في القاموس الفرنسي، وإنما يرصد ايضا كتابا يحمل العنوان نفسه صدر قبل كتابه بخمسة عشر عاما، ونورده حتى يطمئن جابر عصفور:

I. J. Gelb, *A Study of Writing: The Foundations of Grammatology* (Chicago, 1952).

(ب) وإذا قصر جابر عصفور معنى الجراماتولوجيا على «علم الحروف أو الكتابة»، فإن القاموس يقلب رأي عصفور تماما. فالتعريف الذي يورده دريدا نفسه يقول إن الجراماتولوجيا: «أطروحة حول الحروف الألفبائية، وتقسيم المقاطع، والقراءة، والكتابة» (323). ولعل جابر عصفور يحسب أن الحرف هو الحرف المكتوب، في حين أن الحقيقة غير ذلك لأن الأغريق كانوا معنيين بالحروف اللفظية المنطوقة. إذ إن اللوجوس، إذا أعدناها إلى الأغريق كما فعل عصفور هنا، لا يمكن بحال أن تعني «العلم». بل إنها تعني النطق (أي الإدراك العقلي أو المنطق)، الكلام، اللفظ، فن الكلام، الفكر، الموضوع، الخطاب، الكلمة المنطوقة، الجدل الكلامي، الأبن الشرعي، وغيرها. لكنها أبدا لم ترتبط بالعلم، ولعل العرب حينما استخدموا كلمة المنطق لتعريب (اللوجوس) قد أصابوا الترجمة الحقيقية في وصلهم النطق باللوجوس. يقول جون ليولين في كتابه عن دريدا «إن الجراماتولوجيا هي جراماتو**لوجيا**، إي لوجوس، أي علم الكتابة المنطوق» (54). وإذا ارتبط اللوجوس هنا بالحرف، فإن الحرف لم يكن بحال هو الحرف الكتابي النقشي، وإنما الحرف المنطوق (انظر حد الحروف عند فلاسفة العرب). وأشير هنا إلى أن دريدا حين ينكر علاقة الجراماتولوجيا بالعلم، فإنه يستخدم مفردة (سينس/science) وليس اللوغوس لأن اللوجوس هو مركزية الحضور النطقي.

(ج) أما أن دريدا اشتق الجراماتولوجيا من مصطلحي العلم والحرف، أي قول عصفور: «واشتقه من كلمة **اللوجوس** (Logos) اليونانية الدالة على "**العلم**" وكلمة **الجرام** (Gramme) الدالة على "الحرف"، **مشيرا به إلى علم جديد**»، فهذا منتهى السذاجة شأنه شأن خطل عصفور حين قال إن دريدا صاغ المصطلح وسكه. ويكفي أن نشير إلى أن من قرأ الكتاب الذي يحضنا على قراءته جابر عصفور لابد أن يستوقفه قول دريدا إن «الجراماتولوجيين» مضوا في محاولتهم دراسة الكتابة دراسة «تحددها كليا العلاقات بين اللوجوس والكتابة» (81). لكن جابر عصفور لا يدرك معنى الجراماتولوجيا ولا تاريخها وبالتالي فإنه سيذهب إلى المعجم ظنا منه أن دريدا صاغ المصطلح من كلمتين، في حين أن دريدا في الكتاب يحاول أن يقوض علاقات اللوغوس والعلم والكتابة الجراماتولوجية. ولهذا فإن دعوى جابر عصفور التي تربط العلم بالحرف حتى تشير «إلى علم جديد»، هي دعوى باطلة. بل إن دريدا لم يحاول أبدا أن يأتي بأي علم، جديدا كان أم قديما، بل حاول دائما أن ينفذ من قيود العلم والتمركز اللفظي (الحضور: اللوجوس).

(د) وأسباب عصفور للترجمة لا تقل غرابة؛ فهو يقول: «فالباحثان يترجمانه بكلمة "**النحوية**"، وقوعا في المعنى الذي قد يخطر على الذهن لأول مرة، **حين يسمع المرء عن كتاب عنوانه** *Of Grammatology*، **فيتوهم توهما**

ساذجا أن الكتاب يرتبط بعلم "النحو"، قياسا على الأجرومة أو كلمة ''Grammar''، التي تعني النحو **وقواعد اللغة، ولكن ذلك في حالة السماع الذي يقترن بعدم قراءة الأصل، أو القراءة الجادة عنه»**.

وأقول هنا: أولا، لم أترجمه (النحوية)، وإنما (**في** النحوية)، وقبل أن أعلل ترجمتي، أود أن أورد بعض الملاحظات المبدئية. أولها: إن الذي يعرف اللغة الإنجليزية وأصول مفرداتها اللاتينية والإغريقية قد لا يخطر له أن الجراماتولوجيا تختلط بالاجرومة حتى لو سمعها مجرد سماع، وإن هو ربطها هذا الربط فلعله لم «يتوهم توهما ساذجا»، وهذه الحقيقة (التي سأناقشها) تدل على أن «سذاجة الوهم» مفتعلة أكثر منها حقيقة. ومن لا يعرف اللغة الإنجليزية فله عذره سواء كانت «الجراماطولوجيا» أو الأجرومة.

ثانيا: إن قوله «**ولكن ذلك في حالة السماع الذي يقترن بعدم قراءة الأصل، أو القراءة الجادة عنه**» فأمر يتطلب بعض الشرح. لقد بينا أن عصفور لم يقرأ حتى ثاني صفحات الكتاب، ولذلك أضفى على دريدا شرف سك المصطلح رغم إنكار دريدا لهذا الشرف، وإنكاره الربط بين اللوجوس وعلم الحروف. فمن أين جاء عصفور بقضية السماع؟ يبدو أن الأمر غم على جابر عصفور، إذ لعله سمع بقضية السماع مجرد سماع، فظن أن الأمر يعني الجراماتولوجيا. لكن قصة السماع هذه تتعلق بمفهوم الاخ(ت)لاف، إذ جمع دريدا في كتابته مفردة الاخ(ت)لاف بين فعلين وجعل حرف (ألف) بدلا من (إي/ E) حتى يميزه عن مفردة الاختلاف العادي. والحق أن نطق المفردة في اللغة الفرنسية لا يميز الفرق بين المفردتين، فكان دريدا يصر وهو يقرأ نص محاضرته أن يشير في كل مرة يرد فيها المفهوم الأول إلى أنه يقصد ما يكتب بالألف لا المفهوم الآخر. وقد شاع خبر هذا المفهوم وعن اشتقاقه وتميزه بحرف الألف، حتى أن النص المكتوب ما زال محتفظا بهذه الإشارات. ولعل عزيزنا عصفور ظن الأمر يعني الجراماتولوجيا، أو لعله ظن أن ما ينسحب على هذا المفهوم ينسحب أيضا على الجراماتولوجيا، وقد يكون له عذره.

(هـ) أما قوله «**حين يسمع المرء عن كتاب عنوانه** Of Grammatology**، فيتوهم توهما ساذجا** أن الكتاب يرتبط بعلم "النحو"»، فنقول لو كان عنوان الكتاب «جراماتولوجيا» هكذا مفردة وحدها، لكان لعصفور بعض الحق. لكن العنوان هو (**في** الجراماتولوجيا)، وهذا يعني ما هو أكثر من ارتباط مفردتي (جراماتا أو غراما) و(لوجي)، اللتين تفضل عصفور وأعادهما إلى أصولهما الأغريقية، قائلا إن اللوجوس يعني العلم، وإن جراما أو جرامي تعني الحروف أو الكتابة. وسيحتاج عصفور جهدا جهيدا كي يثبت أن اللوجوس يعني العلم ، وأن جراما تعني فقط الحروف أو الكتابة النقشية، وبالتالي سيحتاج إلى جهد مضاعف لإثبات أن (**في** الجراماتولوجيا) تعني علم الحروف أو الكتابة. وإذا اخذنا نصيحة جابر عصفور وربطنا العنوان بمحتوى الكتاب، فالأمر سيتعقد أكثر فأكثر، ولسوف يرى عصفور أن (**في النحوية**) خير ما يقترب من مفهوم دريدا على الأقل حتى هذه اللحظة، والجميع بانتظار ما هو أفضل.

ولا أدعي أن الترجمة لي، بل هي لغيري، وحسبتها مألوفة لا تقتضي الدفاع أو الأعتراف بالمديونية. فإن أنجزها عن سذاجة وسماع فلابد أنها مصادفة تدين لمفهوم المصادفة عند دريدا (ولعصفور أن ينظم قضية «المصادفة» عند دريدا بضرورتها التي تجعل المصادفة قدرا أكيدا)، أما إن أنجزها عن حس لغوي رفيع، فقد أصاب كبد الحقيقة.

ثالثا: في النحوية

إن العملية التقويضية مفهوما وممارسة (سواء عالجت الاخ(ت)لاف أو الكتابة أو الأثر أو الملحق/الإضافة) تعتمد كليا على النظم النحوي (syntax) لتثبت نحويا الدلالة المزدوجة المتناقضة ومفهوم اللاتقريرية. وهذه العملية لا تختلف سواء كان النظم النحوي نظما داخليا على مستوى الجملة، جامعا في الوقت نفسه معنيين متناقضين للمفردة الواحدة، أم كان النظم نظما خارجيا معتمدا على بنية الشيفرة التي تعمل المفردة ضمنها (تشتيت: 221). ثم إن التمييز بين داخلية النظم وخارجيته تمييز مفتعل أكثر مما هو حقيقي في خطاب الفلسفة اللغوية والأخلاقية والميتافيزيقية. يقول دريدا بعد تمييزه بين الداخلي والخارجي: «إلا أن انبناء أو انحلال العلامة النظمي يجعل هذا الخيار بين الداخلي والخارجي خيارا معطلا عن العمل؛ فالمرء ببساطة يتعامل مع وحدات نظمية فاعلة دائما، إن قليلا أو كثيرا، ويتعامل مع اختلافات اقتصادية في حالة مكثفة» (التشتيت، 221).

ولعل من قرأ دريدا يدرك تماما أن الفصائل النحوية الرابطة (أي ما استبعدها التحليل اللغوي على مدى التاريخ من قضايا المعنى، بدعوى افتقرها إلى معناها الذاتي) هي آليات التقويض وأساسه. فدريدا يثبت نحويا ليس فقط أن الكلمات بذاتها لا معنى لها خارج النظم النحوي، وإنما يثبت أيضا أن الفصائل الرابطة هي نحويا التي تهب المعنى لكل المفردات من خلال النظم. بل إن هذه الفصائل المستبعدة تقبل كل ما يقبله غيرها، فالنظم يستطيع أن يحولها اسماء تقبل التنكير والتعريف والعدد مثلما يستطيع أن يحول الاسم فعلا. وهذا ما فعله دريدا في «المقامة المزدوجة» بمفردتي الربط «بين»، وكذلك «أو». وتقوم المقامة المزدوجة نفسها على تقويض تعالي علم المعاني على علم النظم، وانصب جهد دريدا في كتاب (في النحوية) على تقويض هامشية نظم الجملة النحوي وامتياز الكلمة الملفوظة بالمعنى حتى لو كانت الكلمة اسما كـ«الفكرة» (thought) أو «العلم» (ليس اللوجوس). والنحو وحده هو الذي ساعد دريدا على رصد «ما يقوله روسو دون أن يريد قوله»، أي «الهوة» بين الوصف والتصريح التي قاسها دريدا في مفهوم الكتابة عند روسو (217). فالنحو النظمي يفرض زيادة أو بقية تتجاوز الدلالة دائما مما يجعل المفردة لا تقبل التقرير والحد.

ويقرر دريدا في خاتمة جزء الجراماتولوجيا الأول أن «الفكرة» عموما وبمعناها الدقيق لا تعني شيئا، فيقول: «إن الفكرة بالنسبة لي هنا اسم محايد تماما، إنها الجزء الفارغ من النص، إنها المبيان الذي بالضرورة لا يحدد حقبة الاخ(ت)لاف

المستقبلية. إن "الفكرة" في معنى محدد تعني لا شيء» (93). وإهمية الفكرة بميزتها هذه أنها تتطابق تماما مع مفاهيم دريدا الأخرى، فهو يحد الأثر والاخ(ت)لاف والكتابة بهذه السمة: جميعها لا شيء (62، 75، 93). وقد لا يتنبه كثيرون إلى أن الجراماتولوجيا نفسها هي فكرة «لا شيئية»، أي لا هي مادية الحرف والكتابة، ولا هي الحضور الصوتي أو «مفهوماتية» الفكر المتعالي. يقول دريدا في آخر جملة من الجزء الأول مشددا على نهاية الكلمة: «إن الجراماتو**لوجيا**، هذه الفكرة، ستظل محجورة ضمن جدران الحضور الصوتي» (93). والجراماتولوجيا بهذه الميزة ستقلب تعريب جابر عصفور رأسا على عقب حين يقول إن علم دريدا الجديد «يقضي على التعارض الميتافيزيقي بين الكلام والكتابة، والتفضيل الأولي للكلام أو الصوت على الكلمة المكتوبة». ويجب هنا أن أقرر أن كتاب دريدا لا علاقة له لا بالعلم ولا بقلب أهمية الثنائية بين الصوت والكتابة. إذ إن الجراماتولوجيا يجب ألا ترتبط أبدا بمفهوم العلم (وهو غير اللوجوس)، فدريدا يقول: «إن ما يعلن اليوم عن نفسه هو أن الجراماتولوجيا، من جهة، يجب ألا تكون **علما من علوم الإنسان**، ويجب ألا تكون، من جهة أخرى، **علما إقليميا** بين علوم أخرى» (83). أما أهمية الكتابة على اللفظ، فقد أنكرها دريدا في الكتاب نفسه، وسخر منها في حواراته **مواقع**، حيث يقول: «إن كتاب في النحوية لم يكن دفاعا عن علم الكتابة وتمثيلا مضيئا لها، بل حتى لم يكن تصحيحا استشفائيا لما قد سُميّ دائما كتابة. فالقضية لم تكن قضية إعادة الحقوق والتفوق والكرامة إلى الكتابة... فليس ثمة أكثر إبهاما مزريا من مثل القلب الأخلاقي والقيمي الذي يعيد امتيازا أو حقا أبويا إلى الكتابة» (12-13).

ولئن لم تكن الجراماتولوجيا علما بأي معنى، فلعلي أشير إلى إن أعمال دريدا برمتها منخرطة في عملية تقويض منتظم لمفهوم العلم و«التميز» الذي أضفته الفلسفة الغربية على علم المعاني في مقابلة النحو والنظم، وهو التميز الذي أملاه طموح هذه الفلسفة للتقليل من شأن الجانب النظمي سواء كان نظم الصوتيمات أو الجمل أو الخطاب في أي مجال. ولاشك أن النحو هو أساس النظم وبالتالي تكون الجراماتولوجيا أقرب إلى النحوية منها إلى علم الكتابة أو الحروف، إلا إذا كان علم الكتابة يعني النحو. وبالمناسبة، ليس للحرف الكتابي ثمة علم يختلف عن علم الحرف اللفظي (gramme)، خاصة أن دريدا حين يتحدث عن الحرف المكتوب يستخدم مشتقات المفردة الأغريقية (graphon). وليس هذا طرحا جديدا، بل إن من قرأ كتب دريدا أو قرأ قراءة جادة لابد أن يدرك هذه الحقيقة. ففي كتاب ***طلاء المرآة الخلفي*** الصادر عن جامعة هارفارد عام 1986، يقول رودولف جاشيه: «إن عمل دريدا برمته منخرط في تقويض منظم للحالة التي مُنحت للكلمة، أي الاسم، من أجل التأكيد على ثانوية [الجانب] النحوي النظمي؛ ولعل محاولة دريدا هي المحاولة الأكثر راديكالية على الإطلاق لمنح النحو النظمي شكلا مستقلا» (245).

ولعلنا لا ننسى أن أعمال دريدا بهذا الصدد هي امتداد لما أحجم هوسيرل عن تطويره رغم أنه أصابه في كتابه (البحوث المنطقية [*Logical Investigations*])، إذ وقف عن تطوير ما أسماه النحو المنطقي النقي (purely logical grammar)، ودريدا، سواء في الجراماتولوجيا أو في **حورات مواقع**، يتحدث عن أهمية هذا المشروع النحوي، ويرى أن هوسيرل سقط في الهوة الميتافيزيقية رغم أنه بهذا النحو المنطقي النقي كان في مندوحة عن هذه الهفوة. يقول دريدا في **حوارات مواقع** إن مشروع هوسيرل هذا كان «أهم بكثير وأشد انظباطا من مشاريع "النحو العام المعقلن" الذي ساد فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر» (32). وكذلك عالج دريدا القضية نفسها في كتابه الكلام والظواهر.

ولولا تركيز دريدا على النحو النظمي لما استطاع تقويض ظاهرية هوسيرل؛ والنحو النظمي هو الممسك الوحيد لتقويض الحضور الصوتي (اللوجوس أو الجراماتا: كلاهما يعني الصوت أو القول) بأشكالة المختلفة، كما أنه يفي بالمعنى والدلالة دون الحاجة إلى القصد الواعي أو غير الواعي. وحسب المرء أن ينظر في أي من أعمال دريدا ليرى التركيز على النظم النحوي في صوره المختلفة كالبنية والبرنامج المقعّد المقنن وبنية البنية. يقول دريدا في تعليقه على الطرح الأفلاطوني: «إن البنية نوع من الكتابة. وعند لحظة الصعوبة القصوى، أي حين لا وجود لأي موئل بيداغوجي، أي حالما لا يستطيع الخطاب النظري أن يجد أي طريقة أخرى لتشكيل النظام، أي تشكيل العالم، ... عندها يتحول سقراط إلى المجازية النحوية» (التشتيت، 162). وهذه الحقيقة هي التي تفضي إلى تدني أهمية المؤلف (أو موته عند غير دريدا)، وقد عالجها دريدا مباشرة في مقاله «التوقيع، الحدث، السياق» في رده على جون سيرل ونظرية الفيلسوف لانغشو الذي يذكرنا جابر عصفور بتاريخ مولده وموته.

ثم إن مفاهيم الاخ(ت)لاف والملحق/الإضافة والأثر والكتابة، وغيرها، تستجوب الاختلاف بين المعنى والنظم، ولهذا فإن التقويضية تغادر الحقل الظاهراتي وحقل الفلسفة الغربية بكامله، حين تدفع النظم إلى أقصى حدوده. بل لعلنا نقول إن تبني النظم مقابل التميز التاريخي الذي تحلى به علم المعاني وعلم الدلالة، هو الذريعة الأكيدة لمشروع دريدا التقويضي، وبدونه لن يتسنى له مهاجمة المعنى وما تعلق بمفهوم العلامة اللغوية ألسنيا أو سيميائيا من تحيزات ميتافيزيقية. ولعل هذا هو السبب الذي دعى دريدا للدفع بمحاولة رولان بارت قلب مقولة سوسير الألسنية اللغوية، الدفع بها إلى مشروع الجراماتولوجيا الذي يحتوي ألسنية سوسير وسيميائية بارت (51).

لن نطيل في هذه القضية لأن من قرأ أيا من كتب دريدا لابد أن يدركها. فإن أشرنا إلى الجراماتولوجيا وإلى حوارات مواقع، فإن المرء يجد القضية نفسها تتكرر في كتاب التشتيت حين عالج دريدا القضية في «المقامة المزدوجة» من خلال التأويل الموضوعاتي (التيماتي) أو حين قوض مفهوم أفلاطون لعلاقة الجدلية الكلامية بالنحو قبل المقامة

المزدوجة مباشرة. فهناك يربط دريدا المفاهيم الميتافيزيقية من أفلاطون إلى روسو إلى سوسير مصرحا بأسمائهم ومشيرا إلى مشاريع اللغويات الألسنية عموما. ويثبت أن عودة سوسير إلى النحو تماثل تماما عودة أفلاطون إلى المجازية نفسها؛ يقول دريدا: «إن المرجع الحرفي النقشي يصبح لا غنى عنه أبدا حالما تقتضي الضرورة تبرير الاختلاف والتمايز عموما بوصفهما شرط الدلالة الأساسي ... إنه يظهر لا باسم الاختراع التصويري، وإنما باسم النحو القواعدي [grammar]، أي باسم علم النحو القواعدي بوصفه علم الاختلافات» (التشتيت، 162). وغني عن القول أن علم الاختلافات هو مشروع دريدا: إنه النحو الجراماتولوجي (جراماتا: حروف ملفوظة؛ اللوجوس: القول/الكلام: أي الحضور الصوتي؛ ودريدا يلمح إلى الحشو في عنوانه).

ثم إن النحو هو أساس مفهوم الربط (interlacing) والرتق الذي استحوذ على اهتمام دريدا مؤخرا. على أن اهتمامه بهذا المفهوم يعود إلى الجراماتولوجيا وإلى التشتيت. وسواء تعلق مفهوم الربط بنظم المفردات أو الخطاب، فإنه في النهاية مفهوم انتظامية البنية النظمية سواء كانت انتظامية اللغة أو الخطاب. يقول دريدا إنه كان على أفلاطون بالضرورة الحتمية أن «يتحول مرة أخرى إلى مثال علم النحو القواعدي والعلاقات بين الحروف حتى يفسر الرتق الذي ينسج نظام اختلافات ... الأنواع والأشكال» في أي خطاب (تشتيت، 165).

ولو كانت الجراماتولوجيا تعني علم الحروف، لعجبنا أشد عجب من عنوان الجزء الأول في الكتاب نفسه، وهو «الكتابة قبل الحرف»، ولازداد عجبنا أكثر حين يهاجم دريدا مفهوم العلم في آخر هذا الجزء. وهذا ما ينزع مصداقية رأي جابر عصفور حين يقرر أن الجراماتولوجيا عنوان صاغه دريدا «كاسم دال على "علم الحروف أو الكتابة"». ففي الجزء الثالث من «الكتابة قبل الحرف»، يقول دريدا بتشديد تصويري: «على المرء أن يعي **ما هي** الكتابة حتى يستطيع أن يسأل أين ومتى تبتدئ الكتابة-- أي يعي ما هو متحدث عنه ويعي **ما هو السؤال**. ما هي الكتابة؟ وكيف يستطاع تحديدها؟» (74-75). وغني عن القول أن إدراك «ماهية» الكتابة أمر محال لا بالنسبة لنا وحسب، وإنما لدريدا أيضا. فدريدا يربط جواب هذه الأسئلة بالأثر والاخ(ت)لاف، ونحن نعلم أن هذين المفهومين لا يقبلان أبدا الهوية أو الماهية.

فلئن شدد دريدا، في الجراماتولوجيا، على أن «الأثر (النقي) هو الاخ(ت)لاف؛ إنه لا يعتمد على أية وفرة حسية، مسموعة كانت أم مرئية، صوتيه كانت أم تصويرية» (62)، فإنه يكرر القضية نفسها قائلا: «ليس الأثر شيئا، إنه ليس شيئية مادية، بل يتجاوز أي سؤال عن الماصدق» (75). ولا تختلف الكتابة الجراماتولوجية عن مفاهيم الأثر والاخ(ت)لاف. فدريدا يجيب عن علاقة الجراماتولوجيا بالعلم قائلا إنها عنوان سؤال حول ضرورة علم كتابة ما، وحول الظروف التي تجعله ممكنا، لكنه أيضا سؤال معني بحدود ومحدودية هذا العلم، ويختتم اجابته قائلا: «إن من الضروري

في مثل فضاء [الكتابة]، وبوحي مثل هذا السؤال، أن تكون الكتابة لا شيء تماما» (مواقع، 14). إن هذه المفاهيم افراز لخطاب معين سواء كان عن الهوية أو المعنى أو الكتابة بمفهومها المبتذل (التمييز لدريدا، ص: 60). فالأثر هو الكتابة الأصل، والنقش التصويري هو الكتابة بمفهومها المبتذل، ومع هذا المفهوم المبتذل لا ينكر دريدا أسبقية الصوت على الكتابة هذه؛ وإنما ينكر أسبقية الصوت على أولوية الكتابة بمفهومها الاختلافي؛ أي الكتابة بوصفها اختلافا. لكن لا وجود للكتابة قبليا بهذا المفهوم وبالتالي فإن إيجاد علم لها سيؤول لا محالة إلى ما آلت إليه محاولات اللغويين الجرماتولوجية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فيصبح علما إنسانيا، وبالتالي سيرتبط العلم باللوغوس (الحضور اللفظي)، وهو ارتباط تاريخي له من الميتافيزيقا ما للعلم وللحرف الثانوي.

ولعلنا نعود هنا إلى مقولة دريدا في كتابه التشتيت حول مفهوم اللاتقريرية، وهو المفهوم التقويضي الجراماتولوجي بامتياز. يقول دريدا: «إن ما يُعتد به هنا، فيما يخص كلمة أو مفهوم، ليس الثراء المعجمي، أي ليس لانهائية المعنى الدلالي، ليس العمق والعرض، ليس التكلس الذي أنتج داخل الكلمة طبقتين متناقضتين من الدلالة... إن ما يُعتد به هنا هي الفاعلية [*praxis*] الشكلية أو النحوية النظمية التي تبني الكلمة وتقوضّها» (220).

ولأنني سأعلاج القضية في مقال بعنوان «الحراثة: أو "انحرافة الثور" بين الكتابة والقراءة»، فإنني هنا أكتفي بالإشارة إلى أن لسان العرب في مدخل مادة «نحا» يربط مفردة النحو بعلم الألفاظ (وليس الحروف) وبأصولها الأغريقية: «الأزهري: ثبت عن أهل يونان، فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم، أنهم يسمون علم الألفاظ والعناية بالبحث عنه نحوا». وأهمية هذا الربط تبين، من جهة، أن الحروف اللفظية والعناية بها هي ترجمة الجراما، وتبين من جهة أخرى أن النحو هو علم الألفاظ وليس الحروف المكتوبة. ولاشك أن ممارسة دريدا في كتابه (في النحوية) تسحب على هذا الإرث الأغريقي وتحاول أن تبين أهمية النحو التي استبعدها الأغريق من أجل فرض سطوة المعنى والفكر (أي سطوة علم الجدلية الكلامية الأفلاطونية على انتظامية النحو القواعدي).

وإني أحث عصفور على إعادة النظر في مفاهيمه، أما نصيحته أن أستبدل التقويضية بالتفكيك فقط لأن المفردة «شاعت»، فهي من مثله غير مقبولة. وإذ أسكت عن أمور أخرى فإنما لأعامله بالمثل، ولن أنصحه بتحرى الدقة التي نصحني بها لأن تحرية الدقة أمل ميؤس منه ولأن دقة ملاحظاته كشفت عن سخرية القدر المأسوية في مسرحية الريادة الفكرية العربية.